ما الـعَمَــل ؟

الشيخ د. جعفـر المهاجـر

(1)

لقد أصبحتْ ظاهرةُ التكفير ، وما تُنتجهُ من إرهاب ، جزءً من همومِ السياسةِ العالميّة . وكما يحدُثُ دائماً فإنّ هناك الآن قِلّةٌ قليلةٌ تُحاولُ أن تدفعَ النارَ عن نفسِها ، في حين تعملُ كَثْرةٌ على أنْ تستدفئَ بها . ذلك أمرٌ طبيعيٌ في الاتجاهاتِ السياسيّةِ ، حيثُ تُسيطرُ ذهنيّةُ المصالحِ ، وتغيبُ مفاهيمُ العدالةِ والرّحمةِ ، إلا حين تكونُ مجرّدَ غطاءٍ للمصالح .

إنّ التكفيرَ، بمعنى تخطئةِ الآخَر، ليس بالظاهرةِ الجديدة ، بل هو قديمٌ قِدَمَ العقائد دينيّةً وغير دينيّة . الجديدُ إلى حدٍّ البِدعة ، على الأقلّ بحجمِها العالَمي ، هو استخدامُها في السُلوكِ السياسي ذريعةً لأعمالِ القسوةِ الهمجيّة التي تُرتَكبُ ، القاضية بإبادة كل مَن لايندمج في خِطّة التكفيريين دون تمييز .

من السّذاجةِ أن نتصوّرَ أنّ هذا التطوّر المَرَضيّ المعكوس قد حصل بنفسِه أو بفعلِ عاملٍ داخليّ . ومن السّذاجةِ أكثر أن نتصوّرَ أنّ تشكيلَ هذا التجمُّع الدّوليّ الهائلَ يرمي حقاً إلى القضاءِ قضاءً مُبرَماً على الإرهاب ، وإنْ مُحدّداً بشخص مايُسمّى (الدولة الإسلاميّة في العراق والشام / داعش) . أو أنّ هذه القوائم التي أصدرتها بعضُ الدّول ـ المَحميّات بالجماعاتِ أو المُنظّماتِ الإرهابيّة تعني أنّها قد شمّرَتْ عن ساعدِ الجِدّ للعملِ ضدّها ، إنْ بمُلاحقةِ أربابِها ، وإنْ بتجفيفِ ينابيعِها الماليّة . في حين تغُضُّ الطّرفَ ، على الأقلّ ، عن جمْعِ التبرُعاتِ العلنيّةِ لها .

(2)

في سبيلِ تشخيصِ الدّاء دعنا نتفقْ على أمريَن اثنين :

ـ أوّلُهما : أننا أمامَ خِطّةٍ مُحكَمَةٍ ، تضلعُ فيها قُوىً عالمّيّة كبرى ، ترمي إلى إحباطِ عالَم الإسلام نهائيّاً ، أو فلنقُلْ إلى تكوينِ حالةٍ من السرطان السياسي يستحيلُ أو يصعُبُ جِداً علاجُها ، لأنّ خلايا بالغة النشاط من الجسم تشُنُّ عليه حرباً لا نهايةَ لها إلا بالقضاءِ على المـرضِ والمـريضِ معاً . والمُحلّلون السياسـيّون

بكافةِ مذاهبِهم ومُيولِهم يكادون يُجمعون على أنّ فشلَ أميركا الذّريع في أفغانستان والعراق ، ناهيك في احتواءِ مشروع الجمهوريّة الإسلاميّة الرّائدِ في إيران ، هو الذي ساقَ أوعيةَ التفكيرِ عندها في هذا الاتجاه الدّاهية ، بما تملُكُ من خبراتٍ استراتيجيّةٍ وبمعرفةٍ عميقةٍ بالمُحرّكاتِ الثقافيّةِ للشعوبِ ، وخصوصاً بالمواطنِ التي يسهُلُ اختراقُها منها.

ـ ثانيهما : وبما أنّنا وضعنا عنواناً لمقالتِنا يُشيرُ إلى خِطّةِ عملٍ بالمُقابِل ، فإنّ علينا أن نقولَ أن ما من حَلٍّ سِحريٍّ نوعيٍّ للمُعضلة . علينا أن نتهيّأَ ونُعِدَّ ونستعدَّ للأيامِ الصّعبة القادمة ، بكلِّ ما نملُك من أدواتِ المُقاومة ، ابتغاءَ قَلْبِ السّحرِ على السّاحر . واضعينَ نَصْبَ أعيننا أن ليست هذه أولُ أزمةٍ يجتازُها عالَمُ الإسلام . والجسمُ إذ يُقاومُ يخرجُ من المعركةِ أكثرَ قوّةً ومَضاءً .

(3)

بتاريخ 3 /2014/12 انعقد في القاهرةِ بدعوةٍ من الجامعِ الأزهر مؤتمرٌ دوليٌّ تحت شِعارِ مُقاومةِ التطرُّفِ والإرهاب . ونحن نحمَدُ للقيادةِ السياسيّةِ في مصر أنّها التفتت إلى ما لدى هذه المؤسّسة الدينية العريقة من تأثيرٍ إيجابيٍّ في المُلِمّاتِ ، وإنْ بعدَ فواتِ الأوان . أعني بعد أن امتُهِنتْ واستُلحِقَتْ في الماضي ، بحيث فقدتْ جزءاً كبيراً من تأثيرِها على الرأي . وبعد أن أُشرِعَتْ الأبوابُ عريضةً للدعاية الوهابيّة المُسلّحَة بميزانيّاتٍ ماليّةٍ ضخمة ، لتعيثَ في أرضِ الكنانةِ فساداً . وكانت النتيجةُ أن أنتجَتْ أوّلَ تنظيمٍ تكفيريٍّ عاملٍ في بلدٍ مُسلم . لم ينجُ من تأثيرِهِ المُدمّرِ حتى الأزهرُ نفسُه .

المُهمّ أنّ المؤتمرَ خرج بنتيجةٍ خلاصتُها إجماعُ المُؤتمرين على إصدارِ وثيقةٍ ترفضُ الإرهابَ وتُعلنُ البراءَةَ منه . مع التوصيةِ بإصدارِ وثيقةٍ بهذا المعنى تُنشَرُ على الكافّة وبكلِّ اللغات الحيّة . ولستُ أعرفُ ، بل ولا يهمّني أن أعرفَ ، ماإذا نُشِرَتْ هذه الوثيقةُ العتيدةُ بالفعل . لِما هو بحُكمِ الأكيد أنّ تأثيرَها لن يكونَ أكثرَ من صفر .

من الجديرِ بالذّكر ، على سبيلِ أخذِ العِبْرَة ، أنّ أصواتاً ارتفعتْ في المؤتمر نادتْ بإعلانِ تكفيرِ التكفيريين . هوذا أُنموذجٌ على المُعالَجةِ المَبنيّةِ على فَهْمٍ قاصرٍ للظاهرةِ التكفيريّة . وهوذا بالضبط ما يـريدهُ التكفيريّون ومَن وراءَهم . وهــو

أشبهُ بمُحاولةِ إطفاءِ النارِ بإلقاءِ مَزيدٍ من الأحطابِ عليها . ونحمَدُ اللهَ أيضاً على أنّ هذه الأصوات لم يُؤخَذْ بها .

(4)

1 ــ من المُؤكّد أنّ التكفيريين ليسوا إلا قِلّةٌ ضئيلةٌ بالقياس إلى مجموعِ المسلمين ، وأنّ الأكثريّةَ السّاحقةَ لاتتقبّل هذا النّمط من التفكير، وتُعارِضُ بنحوٍ أخصّ سياستَهم التي تجمعُ بين الغباءِ والهمجيّةِ ، خصوصاً وأنّها نالَت الجميع دون تمييز . بل إنّ ضحاياها من السُنّة أكثرُ بكثير من غيرهم . ولكنّ هذه الأكثريّة صامتةٌ ، وأحياناً مرعوبَةٌ ، وأحياناً أُخرى مُستَلَبَة القرار بتأثير ارتباطاتِها الماليّة .

2 ــ ثمةَ أخطاءٌ تاريخيّةٌ مُتراكِمةٌ يجب على الطليعة الواعية العمل على التحرُّرِ منها . ينبغي التّذكيرُ بحقائقَ قرآنيّةٍ ساميةٍ ، سارتْ عليها السياسةُ النبويّة ، في رأسِها أنّ الكفرَ العمليّ هو كفرٌ سياسي " لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسِطوا إليهم" مجموعةً إلى قولِه تعالى: " ولقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتابَ والميزان ليقومَ الناسُ بالقسط " . والبحثُ في هذا واسعٌ ، نكتفي منه الآنَ بهذه الإشارة .

فلنُقارِن هذه الفكرة التقدُّميّة بما في دساتيرِ وسياسةِ بعض الدول الإسلاميّة : ماليزيا ــ مثلاً ــ التي تحصرُ الإسلامَ في دستورها بمذهبٍ واحد ، مَن خارجَه من المسلمين محرومٌ منبوذٌ مُضطهَد . وهو نُسخةٌ عن قانون المِلَلِ العثماني السئ الذّكر . مع مُلاحظة أنّهما كلاهما يعترفان بالأديان غير الإسلاميّة وبحقوقِ أهلِها كاملة .

إنّ حقّ الخلافِ والاختلافِ من حقائقِ القرآنِ الأساسيّة ، المُعبّر عنها في آياته الكريمة بمُختلف التعبيرات . ولكنّ هذه الحقائق مَنسيّة ، لحسابِ أفكارٍ بائسة تصِلُ إل حَدّ تكفير مَن يقولُ بكرويّة الأرض ، وقتلَه وإلقاء جثتِه على مزبلة .

3 ــ هذه الفضائيّاتُ التي نبتت بالعشرات ، لستُ أدري بتمويلِ مَن ، مع العلم أنّ تكاليفَها ليست بالقليلة . كلُّها تعملُ على تسعيرِ النارِ المذهبيّة بمُختلف الوسائل . يُديرُها (أبطالٌ) لاهمّ لهم إلا إثباتُ أنّ الحقَّ كلّهُ في جانب ، وأنّ الباطلَ كلّه في الجانب الآخَر . بعضُهم ممّن نُقرُّ لهم بسِعَةِ الاطلاع وأنّهم يبذلون جُهوداً خارقة ، ولكنّهم لم يلتفتوا إلى أنّهم بما يفعلون إنّما يُؤجّجون ناراً لن تنطفئ إلا

بعدَ أنْ تُحـرقَ الأخضرَ واليابِس . مَن يقولُ أنّ تكليفَ أهلِ العلم يقضي بتبكيتِ الآخَرِ المُخالِف ؟ الجمهورُ المُتَمَذهِبُ ليس هو الحَكَمُ الصّالحُ في هذه الأُمور، لأنّ رابطتَهُ المَذهبيّة إجمالاً خاضعةٌ لاعتباراتٍ مُعَقّدةٍ حُسِمَتْ قبلَ أن يُوجَـد . نعم ، من واجبِ العُلماءِ وأهلِ الذّكر أنْ ينقلوا الجُمهورَ من مُستوى التقليد وما وجدنا عليه آباءَنا إلى مُستوى الوعي . وفي هذا السِّياقِ فلنتخِذْ من منهجِ وخِطّةِ إمامِنا الصادق عليه السلام مُرشِداً ودليلاً . وهو الذي أطلقَ النّهضةَ الإسلاميّة العامّة . وكان بين المئات وربما الآلاف من تلاميذِه مَن هُـم من شيعتِهِ ومَن هُم من غيرِ شيعتِه . وما ذاك إلا لأنّه اشتغلَ على كلّ ما هو إيجابي ولم يستفِزّ أحداً. تلك هي الحِكمة والموعظة الحسَنَة . كما رعى حقَّ الاختلافِ بين تلاميذِه . ومن هنا اكتسبَ تقديراً إسلاميّاً عاماً مُطلَقاً ما يزالُ قائماً حتى اليوم . ونقول : ما من فائدةٍ على الإطلاق من هذا الجَدَل المذهبي العلني بكافّةِ أشكالِه .

(5)

تلك هي ، فيما أدّانـا إليه التّأمُّلُ ، الأقانيمُ الثلاثةُ في خريطةِ الطريق ، نحو موقفٍ إسلاميٍّ عريضٍ من الفكرِ والسلوكِ التفكيريّ . أمّا كيف ننقلُ الأكثريّةَ الإسلاميّةَ من موقعِ السُكوتِ إلى موقعِ العمل ، وكيف نتجاوزُ خطايانا التاريخيّة ، وكيف نُسكتُ أدواتِ التحريضِ أينما وُجِدَتْ ، ــ فتلك مهامُّ أهلِ القرار السياسي من جُملةِ مَهامٍّ أُخرى ليس من شأنِنا في هذا المؤتمر أنْ نعرُضَ لها .